

## سوء تفاهم . . .

كعادتها كل صباح , تقف وراء ما يسمونه في هذه البلاد ال "كاونتر" تستقبل زبائنها بابتسامة لا ندري اهي مجرد ارتسامة بلهاء من مستلزمات المهنة ام هي طريقة للود والتواصل الانساني !! . . . رقيقة على مبالغة في دماثة الخلق توحى ملامحها ضعفا ويظن الناظر اليها انها هشة سريعة العطب . ولطالما ألمها هذا الانطباع الذي توحى به وان كانت في اعماقها تسر به اذ يبقي مكامن قوتها سرا من اسرار انوثتها لا يخترقه حتى اقرب الناس اليها . . . كعادتها تنثر عبارات مجاملة قصيرة او تروي غليل ثرثرة باصغاء عابر هي الى جانب كونها طريقة للتحاور الهش طريقة تبعد بها وحشة هذه الغربة التي لا تني تخزها وتبرز من خلف ضباب الكبرياء والتجاهل , مهما حاولت كبتها

هي كعادتها مبتسمة حتى يكاد ان يكون الابتسام مدعاة تفكه بين افراد عائلتها . . . ولمحتة من بين الزبائن الذين يهرعون ياخذون حاجاتهم يدفعون ثمنها ويهرولون مسرعين في ذلك الصباح الخريفي المشرق , على غير عادات الخريف, . . . شعور غامض جعلها تتوقف عنده . ليست هي المرة الاولى التي يتلكا فيها زبون ما في انتقاء حاجاته ولا هي المرة الوحيدة التي يدخل محلها شخص غريب الاطوار ينتظر حتى يفرغ الحل من الزبائن ليطلب حاجته . . . شكله , طريقة لباسه, هذه النظرة القلقة في عينيه . . . حتما يريد ان يطلب شيئا على الحساب , او يدعي انه اضاع نقوده ويحتاج بعض المال للوصول الى بيته

واذ يفرغ المحل من الزبائن يقترب منها , يدفع اليها بقصاصة ورق مكتوبة بخط رديء . كان اول ما علق في عينيه كلمة " سلاح . . . مال . . . " ابتسمت في سرها , انها طريقة مبتذلة للشحادة . ومن يدري؟! . . . فقد يكون صادقا . . . ان امرا كهذا كثيرا ما يحصل في هذا البلد. ولطالما تفكحت بالموضوع: القانون وفي لجذوره ليست البلد في اصلها مجموعة من المنبوذين والمجرمين؟! . . . فان يهدد احدهم اي عابر سبيل ويسلبه محفظته امر عادي لا سبيل لاستغرابه. . . وراحت تفكر انتقده مالا ؟ افعلا يستحق الشفقة . . . الشحاذون في هذه البلد لا يستحقون الشفقة , مخصصات الضمان الاجتماعي تفي اي انسان سوي ذل السؤال وجاءها صوت جدتها من عميق حكايات الشاطر حسن : الحسنة تجوز على راكب الفرس وما هي الحسنة المناسبة

خمسة دولارات؟! . . . عشرة! . . .! . . . عشرين!؟

كم مرة ستقف وراء هذا الكاونتر وتردد "have a nice day" وتتحمّل سماجة هذا وتلكؤ ذاك وصفاقة تلك ليتم لها تحصيل عشرين دولار؟! . . . لا لا هذا كثير . . . عشرة . . . سبعة . . . خمسة ماذا لو كان ما تنوي اعطاءه لا يسد حاجته

وجاءها صوت جدتها ثانية : ان اطعمت اشبع وان ضربت اوجع

وفيما كانت تهم بوضع قصاصة الورق جانبا لتمد يدها الى الصندوق لتعطيها بعض ما تفيض به نفسها في اللحظة الاخيرة سمعته يهمدر كلاما . رفعت راسها تطلعت ناحيته تستفهم. كان غضبا قلقا يملأ عينيه ولمحت شيئا ما اسود يصوب نحوها ثم سمعته يردد متوعدا  
افتحي الصندوق . . . افتحي الصندوق

وفي لحظة دار في خلدتها كل ما تعرضت له من ظلم وغبن . منذ اول مرة وعت فيه امها تفاضل بينها وبين

أخيها الصبي , مرورا باستلاب حقها ونقدها نصف اجر لكونها تنتمي الى فئة معينة , ومعاناتها في هذه الغربية  
كواحدة من دول العالم الثالث , وانتهاء برب العمل الذي سيستغنى عن خدماتها لأنها وصلت حدا معيناً من  
العمر .

ومن حيث لا تدري امسكت بعضا صادف وجودها على مرمى يدها وهوت بها نحوه. ولى الرجل هاربا متحاشيا  
ضربتها التي لم تكن من العنف بقدر كاف لتصل اليه , سقطت ارضا ولم تستفق الا على صوت يناديها : ماذا  
حدث ماذا حدث؟! ...

نجمه

## ام ميلاد

هكذا بكل بساطة تسللت ام ميلاد من اعماق الذاكرة . . . حرجت كل انواع الحجارة التي شقعتها فوق ذكراها وانتصبت عالية كالقيامة . . . نفضت ختم القمقم الذي كنت قد حبستها واخاها "ابو سمير" فيه منذ عقود وعقود. . . منذ ان وطدت العزم على خنق كل شعاع ذكرى ينوس من تلك الناحية . . . فما نفع هذه الصغائر إذا كانت البلاد كلها قد ضاعت والهزيمة تتعمق عقدا إثر عقد إثر عقد . . . ولكن اليوم عادت ام ميلاد قفزت فوق المسافات وفوق السنين . عادت مع ذبالة شمعة تضاء في هذا الركن القصي من العالم الذي يبعد الاف الاف الاميال عن مكانها

ولام ميلاد حكاية جيء بها مع القادمين من القدس القديمة في منتصف الخمسينات حيث كان يلتقي فلسطينيو المنافي باهلهم الذين بقوا تحت الاحتلال مرة كل عام في موسم الاعياد يتبادلون الاشواق والحنين واطرف المستجدات . حملتها امي وامثالها عبر بوابة "منديوم" . ودار لغط في مجتمع الكبار يومها حول قصتها , فيما كنا نحن الصغار نتلقف الخبر ونعتز بام ميلاد وندعي قرابة بيننا وبينها لننشرف ببطولتها , وينقل بعض منا انتقادا يكون قد سمعه من والديه يستنكر تهورها وحماقتها .

كانت ام ميلاد تتمرد على تجاهلي لها بين الحين والآخر وتقفز كزلة لسان افخر بها وارويها لصغاري في ليالي القصف والعمته , إلا انني قاومت تمردا ونجحت في قمعها بعد اجتياح بيروت وما اعقبه مما سميت بحرب المخيمات . حبستها في قمقم وختمت عليها بخاتم سليمان

وها هي اليوم تنفض قمقمها وتتنفض قبالي متراقصة مع تراقص ضوء الشمعة المضاء في احدى حدائق سدني العامة احياء لذكرى قريتها والقرى المماثلة التي ازيلت من الوجود قبل خمسين سنة وام ميلاد يومها امراة في مطلع ثلاثينها . حتما هي امراة سمراء متوسطة القامة ولا بد ان يكون في عينيها بريق عنفوان وكرامة . . . كما انها واحدة من الذين بقوا تحت الاحتلال بعد النكبة , وهي مثلها مثل الالاف الذين اجبروا على اخلاء قراهم وامسوا لاجئين في وطنهم .

لجأت ام ميلاد مع عائلتها الى قرية لا تبعد الكثير عن قريتها كفربرعم . . . رفضت النزوح الى حيفا او عكا كما فعل الكثيرون . بقيت في الجش اقرب ما يمكن للقرية الغالية - اريد ان اشم ريحة هوا الوادي والكرم . . . اريد ان اكون اول العائدين عندما تحين العودة سعى زوجها والكثير من اقاربها لاقتناعا بالنزوح , ولو الى صفد , حيث فرص العمل افضل فما نجحوا . هون يظل ينسم علينا هوا الحبايب .

ول "أبو طنوس" والد ام ميلاد في كفربرعم كروم زيتون تقول عنها انها اطيب زيتون بالعالم كله وفي موسم الزيت والزيتون كانت ام ميلاد تتحسر على زيتونات والدها فتقول - باطل ! ! . . . بنت ابو طنوس تشتري زيت وزيتون من السوق . . . يحرم عليّ الزيت والزيتون اذا ما كانوا من زيتونات الكرم

- كبري عقلك يا مري . . . اليهود مسيجين الكرم . . . ممنوع ممنوع . . . العين ما تقاوم مخرز

- عين الحق اقوى من المخرز

- هاي حكومه , انت تريدي تقاومي حكومه

- ومين حكمها على رزقنا ومالنا وحلالنا؟! . . .

- ابعدي هذه الفكرة من راسك . . . الله يكفيننا شرهم

وفي فجر يوم تشرينيني شاحب , كانت ام ميلاد تغذ الخطي وحيدة من "الجش" الى "كفربرعم" ومع انبلاج الصباح كانت في كرم الزيتون الذي طالما تسلقت زيتوناته طفلة , مداعبة امها حينما بتجاهل ندائاتها

قصد ايهاها ان سوء اصابها, ومغافلة اخاها طنوس برشقه بالحصى حيننا اخر... تحت هذه الزيتونى النى قال والدها ان عمرها يزيد على ثلاثمئة سنة, تفيأت اول مرة احست فيها الام المخاض... وفوق هذه "السنسة" حملت لخطيبها زوادة الغداء عندما كان يساعدا اهله فى القطاف فتقاسمت واياه لقمة المجرة والبصل الاخضر. وفي هذا المكان نهرت اخاها طنوس الذى كان يسيء لاغصان الاشجار بالقفز من واحدة الى اخرى. اغاظته فتناول حجرا ورشقها به فاغمي عليها, فراحت امه تكيل له الدعوات واستفاقت على صوت صهرها يقول: لا تخافى البنات بسبع ارواح...

وجاش بها الحنين لايم عذاب فغمرها, على ما تقول شجن غريب, وانطلق لسانها فى موال مجرح حزين, فتلقفت الصخور والحجارة واغصان الزيتون وحتى اعشاب القندول صوتها وردت صداه فى كل الاودية المحيطة والهضاب... كانت قد ملأت كيسها من حبات الزيتون الكبيرة الغالية على قلبها عندما انتصب امامها جندي بلامحه القاسية وبنلته الانيقة فكلمها بلكنة عربية ركيكة.

- شو عم تعملي هون يا مري... يله اطلعي بره...

- انت شو عم تعمل هون؟!... هذا زيتون ابي

- هذا من اليوم وغاد زيتون الحكومة...

- زيتون الحكومة!... يا عيني عليك وعلى حكومتك بنت امبارح!... هذا زيتون ابي ورثه عن جده عن جد جده عن, عن عن... الى آخر ما الله يعلم

- قلت لك هذا زيتون الحكومة

- اي والله تعبت كثير حكومتك بسلامتها بفلح الارض وغرس النصب... حبيب امك!... هذا زيتون متعوب عليه ومنصوب قبل ما حكومتك تخلق بمئات السنين

لم يجر صاحبنا جوابا وما بان على قسماته اي انفعال بل تناول كيس الزيتون من يدها ونهرها... اطلعي بره

انتصبت ام ميلاد حتى كادت قامتها تطاول شجرة الزيتون, واشرب عتقها ولمع بريق غريب فى عينيها

- هذا زيتون ابي وانا احق به من كل الخلق اللي على وجه الارض... لعنة الله عليك وعلى كل الحكومة - تادبي يا مري... عيب هذا الكلام

- عيب ما انتم تعملون

- إسا احطك بالحبس

- شوف يا ابن الناس, إخزي الشيطان!... هذا زيتون ابي... اعطيني الكيس وخليني امشي

ولم يدعها تمشي بل قادها مرغمة الى مخفر الشرطة. وهناك قيل لها اما ان تدفع ثمن الزيتون او تدخل السجن

- باطل!... ادفع ثمن زيتونات ابي!... إحبسوني... احبسوني اشرف... ولكن والله العظيم وحق العذرا مريم, اول يوم اطلع فيه من الحبس امشي راسا على كفربرعم والم الزيتون من كرم "ام النور"

- تادبي يا مري, عيب!!

لا تقول الرواية ماذا جرى لأم ميلاد بعد ذلك... ولكن ما حدث لأبنها البكر اثار الكثير من التساؤلات. امسى ميلاد يستدعى الى مخفر الشرطة يوما بعد يوم, وتوجه له تهم لا علاقة لها بقطف الزيتون, فهو سارق يوما ومشاغب يوما اخر ومعتد على الحرمات فى ثلاثة... الى ما فى الجعبة من اتهامات مهينة. زاحت

القريبة تتداولها ويختلف امر الناس في شأنها الى ان ضاق الفتى المراهق بالاكاذيب التي تلمق ضده, ونفذ صبره فلم يعد يقوى على احتمال النظرات الشكاكية في حقه. وفي احدى الليالي المدلهمة السواد تسلل عبر الحدود لينضم الى الاف اللاجئين في بلاد المنافي . وحرمت ام ميلاد بكرها وامسى حزنها حزنين : ضاعت كفربرعم وضاع ميلاد

## هواجس

تقلقه هذه الصغيرة تنغص عليه متعة الاستمتاع بميزات هذا البلد الذي اواه ضعيفا مهانا هاربا من انون وطنه الام . . . لم تكمل عامها الثالث عشر بعد وفي خطابها وقاحة يسمونها جراحة وصراحة . . . لم تكمل عامها الثالث عشر وترفع صوتها مائة البيت زعيقا احتجاجا على تدخل امها في امورها الشخصية كما تسميها . تعلق هارئة على اولئك المتخلفين كلما رات امها تشاهد احد المسلسلات العربية . . . كبرت جولي قبل الاوان . بدأت تهتم بزيتها , تراقب نظام غذائها , تعدد الوحدات الحرارية في وجبات طعامها , تحرص ان تكون اول من يليي نداء التلفون , تقضي ساعات طوالا داخل غرفتها المغلقة وتقيم الدنيا وتقعدها لو عكر احد اخوتها صفو خلوتها . . . كثيرا ما تاخذ آلة الهاتف الى غرفتها , تقفل الباب وراءها وتقضي ساعة او اكثر غير ابهة باعتراضات امها ولا توسلات اخيها الذي يريد حصته من التلفون . جدران غرفتها مكسوة بصور الممثلين المخنثين - برأيه - امثال مايكل جاكسون ومادونا . هاجس ياكل كبده كلما خطرت امامه بانوثتها المفتحة الاكمام: ان تاتيهِ يوما متابطة ذراع مخنث ما بشعر مسترسل وتقول له هذا "ماي بوي فرند دادى".

- يا حمار يا سعيد لم تحسب حساب هذه الساعة عندما حرمت امتعتك وتركت بيروت الى استراليا . ماذا لو انك يومها قبلت ان تنضم الى التنظيم فلان ! ! . . . معاش مامون . . . قيمه بين الناس وعمل قليل . . . مغرور ! ! . . . فكرت انك بهذا تبقى غير ملوث وتؤمن مستقبلا نظيفا لابنائك ! ! . . . من تحت الدلفة لتحت المزراب يا مجنون ! ! . . .

لا لا . . . إخذ الشيطان ياسعيد . . . جولي مثل امها عاقلة وعقلها كبير , امها السعيدة بدورها كام وربة منزل , امها التي ما تبجحت يوما بشعار فارغ كم تفعل الكثيرات ممن يعرفهن ولا اصابتها حمى التمرد والاستقلالية ولا فرضت شرطا او تفرنجت بلباس او تقليد . . . البنث مثل امها . . . - ألف ورده خلفت قرده . . .

- طب الجرة على تمها تطلع البنث لامها , اي المثلين يصدق؟! . . . ضاق صدره وصلت هواجسه حدها الاقصى , فجولي منذ ما شاء الله وبرفقتها سماعه التلفون والباب مقفل وراءها , تارة تتكلم همسا وطورا تهقهه بضحكة عالية تنزل في اذنه كالغضب الذي انزل على موسى . . . ترى من يكون على الطرف الاخر من الخط وما هو هذا الحديث المهم الذي يستعرق كل هذه الساعات؟! . . . ايقوم الى السماعه الاخرى يسترق السمع؟! . . . لا لا عيب يا سعيد هذه ندالة - ندالة, وإن يكن ! ! . . . افضل من هذا التخائل والسلبية . . .

ولكن ماذا لو كان على الطرف الاخر طفلا كبيرا في مثل سنها؟! . . . ايعقل ان يمنع عنها صداقات بريئة تقوم بينها وبين زملاء لها في المدرسة؟! . . . أما كانت له هو الاخر صديقات على مقاعد الدراسة في بيروت . . . لا لا الامر يختلف هنا, لا شيء يظل بريئا في هذه البلاد . . . حتى ولو لم يكن بريئا ماذا بامكانه ان يفعل؟! . . . يصرخ يثور , يمنعها من الخروج , يمنع عنها التلفون, يمنع عنها الاصدقاء؟! . . .

تبا لقولنين هذه البلد تمنع الوالد من ممارسة حقوقه الابوية . لن يجديه اي عمل سلبي نفعا فربما ادى الامر الى هروبها من البيت وسيكون هذا القانون الاعوج الى جانبها بل ربما عوقب لانه اساء استعمال سلطته الابوية , وربما تطور الامر واعتبر اب ظالم وحرّم حق الابوة عليها . ومن يدري فربما استطاع ابناء السوء ان يزرعوا في نفسها اسوا مما هو خائف منه . . . غلت نيران في صدره , تراءت له استراليا وحشا شرسا يبتلع ابناءه

واحدًا واحدًا وقد بدأ اليوم بجولي  
- كم كنت مغفلاً يا سعيد يوم اعتقدت ان ثغرات المجتمع الاسترالي لن تنقر بابك . . . غرتك يا مجنون شوية  
ماديات , ضمان اجتماعي, تامين تعليم الاولاد, تامين شيخوختك . . . بلعت المنجل وقد حان وقت خروجه  
إصرخ اصرخ يا منظوم ! . . .  
قام من مقعده بدأ يزرع الممر المحاذي للغرف , يداه متشابكتان خلف ظهره عيناه مطرقتان في الارض,  
تصل اليه اصوات فلا يسمعها . . . يقترب من الباب المغلق القدر, يمد يده ناحية قبضته ثم لا يلبث ان يرجعها  
الى الوراء , مرة وثانية وثالثة . . . قوة ما اقحمت نفسها فوق يده وادارت تلك القبضة, فتح الباب بعصبية,  
كانت جولي متربعة فوق سريرها, مسندة سماعة الهاتف ما بين ذقنها وكتفها حاضنة فوق ساقها صفحة  
مليئة بالارقام والرموز الحسابية ,  
رفعت الفتاة نظرها صوب والدها مستفسرة  
- انني . . . أنني . . . ابحت عن . . . عن . . . نظارتي  
- تمتت جملة قصيرة لمحدثها , وراحت في قهقهة عالية صاحبة تحقق في وجه ابيها ونظارتيه الجاثمتين  
كالقدر فوق انفه

نجمه: آب ١٩٩٤

## الجسر

ايامها تمر رتيبة متباطئة فتترك بصماتها في ملامحها مضاعفة . اوامر القربى تشف حتى تكاد تنتقطع بينها وبين افراد عائلاتها, فالزوج غائص في خضم حياته الجديدة يصارع لتثبيت خطاه التي لم تزل مرتبكة بعض الشيء , والابناء كل له اهتماماته لاه عما سواها . حتى ابنها الاصغر توقف عن التكلم بالعربية وصار يتنافى بوقاحة لانها لا تعرف الانكليزية .

العجلة تدور وليلى تحاول ان تتحايل على غربتها بشتى الطرق . لم تفدها الشهور الستة التي قضتها في تعلم الانكليزية بالشيء الكثير , ما زالت غير قادرة على لعب الدور الذي ترنو اليه في هذه الحياة , فهي ولاسباب ليست كلها مما يتعلق باللغة , لا تستطيع ان تتابع تقدم ابناؤها في مدارسهم كما كانت عليه الحال في لبنان , وللاسباب نفسها هي معزولة عن كل تفاعل إيجابي في محيطها . حتى طاقة الفرح الوحيدة التي كانت تبعث شيئا من السرور في نفسها اقلقت عزف الابناء , وحتى الزوج , عن امتداح طعامها وامسوا يفضلون عليه "ماكدونالد" و"سيزلر" و"ك أف سي" .

تمر في خيالها صور الماضي فتراها بعيدة بعيدة اصداها الزمن حتى كادت تضيع ملامحها . لم يمض على هذه الصور بلغة العقارب ودورات الفصول إلا سنوات معدودات ولكنها تأتيها سحيقة من اعماق ذاكرة ارهقتها التحسر .

منذ سنوات لا تتعدى اصابع اليد الواحدة كانت اقصى امانيتها الحصول على فيزا الى استراليا , ولكنها يوم حصلت المعجزة احست بانقباض غريب في صدرها . تشاءمت , فرسمت اشارة الصليب وطلبت من "السيده" ان تبعد الشيطان عن افكارها . يومها بدا الابناء سعداء , يحلمون بالبلاد الجديدة ويخططون للمستقبل بحماس وفرح . كل له طموحاته وامانيه , حتى ابنها الاصغر , والذي لم يتجاوز الرابعة من عمره , أصابته حمى الكبار فغدا منطلقا يحلم في بلاد يلهو بها على هواه دون ان تنهره اصوات الكبار مطالبة إياه بالهدوء كي لا يزعج الجيران في الطابق السفلي

طوال الطريق من بيروت الى دمشق لم يكف الاب عن الثثرة التي كانت تخفت فتشبه الهذيان أحيانا وتعنف وتشتد احيانا اخرى حتى وكأنه الديان يوم الحساب. كان يرسم للمستقبل الجديد, يصف تفاصيل البيت الذي سيبنه هناك : بيت بطابقين , لكل ولد غرفته الخاصة , سقفه كذا وكذا. . . حيطانه . . . تماثيل , نقوش . . . بلاط رخام . . . حديقة تزهو بكل انواع الزهور . ساصرف عليه دم قلبي . لن يحرمني منه قصف عشوائي ولا قذيفة مستهدفة .

كل هذا الصخب وليلى ساهمة يعترئها انقباض لا تدري له سببا

- لست ارى لزوما لهذه الهجرة . أكلنا زوم الحرب كلها والبلاد الان بحالة جيدة وانفتحت على بعضها , هون الواحد له اهل واقارب وجيران . الله وحد يعرف ما ينتظرنا هناك

لم يصع احد لاعتراضها الخجول . كل يثرثر , يحلم ويخطط للمستقبل الموعود , قال الزوج : يكفيننا بهدله يوم حرب تحرير ويوم حرب الغاء ولا تحرير ولا الغاء . خراب بيوت عالفاضي . لن ارمم الشقة التي تهدم نصفها في الحرب الاخيرة سنسكن عند اهلي في الجبل ريثما نهيء حالنا للسفر . حاولت ليلي ان تبدي رايا ولكن زوجها استمر بحماسة يخطط , الشقة بعشرين الف , السيارة بخمسمية , مولد الكهرباء بمية آل . . . ال . . .

وتتلاحق الصور . . . يومها استقبلهم الاهل الذين سبقوهم الى هذه البلاد بالترحاب. واقيمت الحفلات احتفاء بقدمهم . عاشت العائلة لاسباب مدهولة بهذا الحنان الذي اغدقه عابهم اقاربهم وحتى اصداق اقاربهم . كل تبرع للمساعدة . وجدوا من رافقهم الى دائرة الهجرة لاتمام الاجراءات اللازمة. اصطحبوا الاب الى مكاتب



الضمان الاجتماعي , علموه كيف يعبئ " الفورم " وافهموه ضرورة ان يفعل ذلك كل ثاني ثلاثاء حتى يحصل على مقررات الضمان الاجتماعي . قررروا عنه المدارس اللائقة لابنائهم , حاول ان يعترض : يكفيهم مدرسة حكومية في اول الامر , من اين سيدفع الاقساط  
- مدارس الكاثوليك احسن لتربية الاولاد . وشرحوا له انه ليس عليه ان يخاف من عدم قدرته على تسديد الاقساط في حينه . يستطيع ان يدفع على راحته وقد مستطاعه  
- معقول ! ! . . . ويتذكر كم من مرة ردت ابنته مكسورة الخاطر الى البيت لانه لم يسدد القسط في حينه واختاروا لهم البيت الذي راوه مناسباً , نظم عملية البيع والشراء المحامي " الذي ما في منو بكل سني " , محاميهم منذ عشرين سنة . اقترضوا من البنك الذي يتعاملون هم معه " احسن بنك بكل استراليا " . وكذلك القول بالنسبة للطبيب والمحامي واللحام والسوبر ماركت وحتى الحلاق . . . يكثر خيرهم عملوا واجبههم وزيادة .

استقرت العائلة بسرعة مذهلة , حظي الزوج بعمل في مهنته رغم الركود الاقتصادي الذي كان يعم البلاد باسرها . لم يحتاج لكثير من الانكليزية في حرفته , ما يعرفه يفي بالعرض . استقر الابناء في مدارسهم , اتقنوا الانكليزية باشهر قليلة . صحيح انهم واجهوا بعض خيبات الامل ولكنهم تخطوها باسرع ما يكون من امر امثالهم فقد افادتهم ظروف الحرب التي عاشوها على سرعة التأقلم

هذا الشريط الذي تستعرضه ليلى كلما المت بها موجة اكتئاب , والذي يبدو مفرحاً مثل نهاية افلام فانت حمامة , لم يستطع ان يزيل ولو طبقة رقيقة من الياس القابع خجولا في تلافيف روحها . احساس عميق بالفراغ يملأها حتى تكاد تحس معه ان الحياة لا تستحق ان تعاش . . . كيف تملأ هذا الفراغ ! ! . . . فالزوج يقضي كل النهار وقسماً كبيراً من الليل في العمل وان عاد ليتسمر ساعات امام التلفزيون محاولاً قدر المستطاع تفهم ما يدور حوله , ولما تعجزه اللغة يتصفح الجريدة العربية التي تنقل له اخبار الوطن وشيئا عن نشاطات الجالية . والابناء لاهون ينتشجرون على البرامج التلفزيونية .  
ياتي الابن الاصغر عادة من المدرسة فيتسمر لساعات امام الشاشة وما ان يصل اخويه حتى يعلو صياحهم ويتبادلون الشتائم . . . تعلمت ليلى معنى بعض منها وهالها ان يستسهل الابناء , وخصوصاً الفتاة , التلفظ بهكذا بذاءة . . . تعترض , تحاول ان تتدخل , ولكن احدا لا يسمع . لو كانت هناك في بلدها لحتت المشكلة بصورة سريعة وسهلة , " بس هون غير شكل "  
استفاقت من شرودها على أثر تغيير مفاجئ لحرارة المياه على يديها . كم كانت سانجة يوم ظنت ان العمل سيعيد الدفء الى روحها , لا يستحق هذا العمل المعركة التي خاضتها مع افراد عائلتها يوم طلعت عليهم بهذا الموالم : يومها دفعت زوجها دفعا للاستماع اليها , هزته من كتفه , خطفت الجريدة من امام عينيه  
- اريد ان اعلم . . . ساطلب من فريده ان تدبر لي عملا  
- وبماذا عملي ؟

- اي شي طباخه . . . خدمة بمطعم . . . في ورشة تنظيف , جلي صحنون , اي شي  
- بلا صغر عقل . . . بيتك اشرفك . . . باي لغة تتفاهمي مع الناس ؟ . . . شوبك بوجع القلب ما حدا عايز شغلك

- ما حدا عايز شغلك . . . ما حدا عايز شغلك . . . يعني خلص , ما عاد لي عازه ؟ ! ! . . . ارواح على القبر ! !  
يقطع هيك حياة يا ما احلى ايام القصف , النوم تحت الدرج ولا هذه العيشة  
- دائما تتأفمي , ما في شي يعجبك . أشكري ربك على النعمة . ما عندك شي تقوليه غير هالنغمة ؟ . . .  
زهقنا منك ياه

- فريده تعرف بعض المصالح اللبنانية . الانكليزي فيها ما كتير اساسي . ساطلب منها ان تسال إذا كان ممكن يعطوني عمل

- صحيح انو ما عندك ذوق . ألا يكفي ما فعلوه لاجلنا ؟ يقول المثل ان كان حبيبك عسل لا تلحسوا كلو  
لم تصخ لاعتراضاته , فالجمرة لا تحرق غير مطرحها . ويوم اتصلت فريده لتقول ان هنالك مطعما لبنانيا  
بحاجة الى مساعدة باعمال المطبخ الا انه يدفع نصف اجر , لم تتردد . رضيت على الفور  
تنهيدة جارحة تلاشت مع قرقرة الصحون بين يديها نفثت فيها كل ما في صدرها من خيبة . لو انهم  
فقط حبروا خاطرها وفرحوا بما حملته لهم من هدايا . كم توقفت امام الواجهات لتنتقي شيئا جميلا يفرح  
قلب ابنتها . هذا جميل . . . لا هذا اجمل . . . سوار . . . اقراط . . . فستان . هذا يحبه القرقور , والقرقور لجة  
تعودت مداعبة ابنها الاصغير بها . كانت تظن انها ستجلب الفرح الى قلوبهم . ويا لخيبتها ! . . . لا فرحا ولا  
حتى اسحسانا . . . اخذت الابنة الكنزة ورمتها باهمال على السرير حتى انها لم تجرب مقاسها . القرقور لم  
يهجم عليها , كما تصورت, ويشبعها لثما وضما تعبيراً عن امتنانه  
سقى الله ايام زمان ! . . . كانت العائلة كلها تفرح إذا ما قدر لها زبونة دفيعة لقاء بعض الملابس التي  
تخيطها لها . كان التعب له طعم جميل . كانت الفرحة على وجوه ابنائها تنسيها سهرها الطويل امام ماكينة  
الخيطة

- هون اولادنا مش لنا . اولادنا اولاد الحكومه هي تعطيهم "اوستدي" \*انتهى دورنا راحت علينا  
لم يستطع عملها في المطعم ان يخفف من غربتها . لقد تعلمت منذ وعت الحياة ان العمل لسد  
حاجة مادية وليس ترفا انسانيا فاغتمت ورات نفسها في عزلة حتى في اشد ساعات يومها انشغالا . فراغ قاتل  
يجتاحها . لم يعطها العمل الذي ظننته مخرجا الاكتفاء الذي تريد , فاكتأبت وانطوت على نفسها . انطفاً بريق  
الحياة في عينيها واصبحت نظراتها زجاجية باردة . خفت صوتها حتى يخيل لمن يسمعها , إن وجد, انه أت  
من جوف انسان عمر حتى قارب حد القبر . . . كم من مرة ضبطت تكلم نفسها بصوت عال . . . لم يلحظ احد  
من افراد اسرتها التغيير الذي يطرأ عليها . لم يخفف عنها احدهم بكامة حب . . . ضاقت الدنيا امام عينيها .  
احست نفسها تنسحب من الحياة كقط اجر ب استغنى فلاح شحيح عن خدماته . ولطالما راودتها افكار  
مجنونة كانت تبعتها عن تفكيرها بمساعدة " العدرا مريم " . نفضت رعوة الصابون العالقة بيديها فقد احست  
باختناق في صدرها فرمت المربول جانبا , وانكأت بمرفقيها على حافة المجلى يقطع هالعيشه, الموت ارحم .  
. . . ولمع في خاطرها فكرة راقصة . . . ابنة عمها التي رملتها الحرب اللبنانية على صغر تعاني الامرين في  
تربية ابنائها . ارملة في منتصف الثلاثينات وام لثلاثة أطفال . . . نذرت عملها لهم واصبحوا مسؤوليتها  
الجديدة

## بوابة مخلقة

لم يكن يفصل بيننا سوى حاجز من الصفيح الرقيق لا يتعدى ارتفاعه نصف قامة , فنوافذنا متقاربة واغصان اشجارنا تكاد تتعانق وقطنهما لا يحلو لها اخذ حمامها الشمسي إلا في حديقتي . منذ ان اسنقرا في جبرتي والتعرف إليهما هاجس يساورني لا ادري كنهه . فانا بطبعي لا يغريني فضول تجاه جبراني , ليس لعب في بل تشبها بخصال الغربيين الذين لا يتدخلون فيما لا يعينهم ولا ينشئون علاقات حميمة مع جيرانهم , لذا ورغم تعاقب افواج متعددة من الجيران على جبرتي في السنوات القليلة الماضية, لم يثر احدهم إهتمامي وما فكرت يوماً ان انشئ علاقة, ولو سطحية, مع اي منهم , فما بالي هذه المرة اخلق المناسبات لهذا التعارف ! ! . . . فما من مرة الحظها في الحقيقة حتى اهرع متظاهرة بقضاء حاجة , كنشر غسيل او تسوية ارض الحقيقة او تفقد اطباق الورد التي تتسلل خجولة ناحيتهم .

إبتدأ التعارف بسيطا , تحية صباحية , تدمر من حالة الطقس , ثم امتد ليشمل السؤال عن بلد المنشأ وعن الاسباب التي دعتهما لاختيار سدني مقرا لاقامتتهما . فعلمت ان جاري زوج وزوجة منذ ما يزيد على العشر سنوات . كانا يعيشان حياة ريفية هادئة وسعيدة , ولكنهما ولاسباب تتعلق بصحة الزوج اضطررا للانتقال الى سدني .

قالت : منذ بضع سنوات بدأ آرثر يعاني ارتفاعا في ضغط الدم وقد عالجه الأطباء بومها ضد هذا المرض الشائع - على حد تعبيرهم - بالادوية والحمية ولكن حالته لم تستجب للعلاج . بل انه بدأ يفقد شهيته للطعام , واعتراه بعض هزال وبعد اخذ ورد وتردد طويل على عيادات الاطباء من مختلف الاختصاصات , وبعد اجراء التحاليل المختلفة والصور الطبية على انواعها . بعد عناء مرير تبين ان الرجل مصاب بداء التهاب الكلى . والتهاب الكلى , على حد زعم ذوي الاختصاص , مرض لا يمكن النكهن بمدى تطوره , فحالة المصاب قد تستفحل وتنعصي على العلاج في مدة زمنية لا تتعدى السنتين , وقد تتباطأ فيعمر صاحبه الى عشرين سنة , وفي هذه الحالة قد يعيش صاحبه طبيعيا باستثناء بعض الادوية وبعض الحمية .

لم يكن جاري ممن حال فهم الحظ , فقد بدأت حاله في التأزم قبل مضي سنتين على تشخيص المرض وعولرضه تزداد وضوحا يوماً إثر يوم , فالتحلل سر حثيثاً وبدأ الرجل يشكو عوارض الصداع والهزال وضعف البصر والتورم

حاول الاطباء معالجته باحدث انواع الادوية التي لم تبخل الدوائر المختصة باستيرادها له ولامثاله بألاف الدولارات , إلا ان انسجة الكلى لدى آرثر قد بلغت من التلف حدا استعصت على اي علاج

عايشت جارتني زوجها في كل مراحل مرضه فكانت له الممرضة والزوجة والاخت والصديقة. لا اعتقد انها خانت التزاماتها تجاهه يوماً. كنت اراها من وراء زجاج نافذتي تصحبه للتنزه في المنتزه المجاور , وتعد له شايه عند كل عصر وتحضر له اشربة الفيديو التي يربح في مشاهدتها . هذا الى جانب اصطحابها له مرتين او ثلاث في الاسبوع الى مركز غسل الكلى .أدهشني اخلاصها ورخت اسائل نفسي عن مدى صحة الكليشيهات التي لقناها والتي تدعي ان المرأة الغربية ملولة تتخلى عن رجلها وعائلتها لاتفه الاسباب , فإن كانت هذه القاعدة صحيحة فإن جارتني هي شواذها. صحيح انها كانت تبدي تبرا وامتعاضا في بعض الاحيان من العبء الملقى على عاتقها ولكنه تافف طبيعي من باب ما ينفث ليريح ويفسح مكانا لطاقة جديدة , فهي لم تترجم تأفمها تهاونا ولا حتى باحت يوماً امامه باي من هذه المشاعر السلبية .

كان التدهور سريعاً استلزم اجراء عملية زرع كلية باسرع وقت ممكن , وعملية كهذه ليست بالامر السهل , لا من الناحية التقنية او المادية بل من صعوبة الاستحصال على متبرع مناسب . جابت جارتني على جميع اقارب زوجها الاقربين منهم والابعدين أملة ان تجد شهماً ينقذ حياة زوجها فلم توفق , فهم إما شحيح

ضنين وإما انسجته لا تناسب . لجأت للاعلام حاكت ضمائر الاستراليين فاتتها الاف الرسائل المتعاطفة  
المواسية ومنهم من وعدنا بالتبرع بكليته بعد موته. ولكن حالة الرجل لا تنتظر فهو يقترب من الهاوية يوما  
بعد يوم

اشدت هلع الزوجة فوسعت دائرة بحثها . اتصلت بجميع مراكز طب الكلى في العالم مستعطفة  
تطلب المساعدة , وكانت معظم الاجابات إما سلبية أو متحفظة فهذه المراكز على اختلافها تعاني أزمة  
متبرعين , فزوجها ليس الوحيد في معاناته بل ان هناك عشرات الالاف في العالم ينتظرون رحمة الاقدار  
كنت اراها تنحل يوما بعد يوم , ومعالم الارقاء تلون مآقيها فارثي لحالها , ولطالما عبرت لها عن  
تخوفي من ان يصيبها مكروه , ولطالما نصحتها بان تسلم امرها لله فتبتسم ابتسامة غامضة احار في  
تفسيرها , أهي ابتسامة امتنان لاهتمامي اوأخرى مستخفةبمعتقدي . . . قد تكون من لا يؤمنون بالمعجزات  
ولا يسلمون امرا للقدر ,

ورأيتني انغمس بالماساة وتصيح قصة جاريّ الهم الذي يرافقني ليل نهار . تحسست ألمهما قطرة  
قطرة وعشت معاناتهما بكل دقائقها . كانا محور حديثي مع افراد اسرتي والاقارب الذين يزوروننا من حين لآخر  
تغلغل المهما في كياني فامسيت احس ذنبا إزاء عافيتي وكأن هذه العافية سوط يصفعهما . . . وإخراسا  
للاحاح هذا الاحساس فكرت بعرض احدي كليتي عليها تنقذ جاري مما هو به . فما دام باستطاعة الانسان  
العيش صحيحا معافى بكلية واحدة فلماذا لا يينقذ حياة بما هو زائد عنده . اليس في هذه الزيادة اختنارا  
لعمق انسانيتنا او اضمحلالها

- كيف يمكنني ان افسر تضحية كهذه لزوجي وافراد عائلتي ؟ ! كيف يمكن ان يؤؤل عمل كهذا في مجتمع  
مادي كالذي نعيش فيه

- لا صلة رحم , لا قرابة ولا حتى صداقة تيرر هذه التضحية

- ألا تكفي صلة الانسانية

- ملذا يمكن ان يزيد او ينقص من بحر المآسي حياة او موت شخص هو قطرة في الماساة الانسانية الكبرى .  
شعبك كله هناك يعاني . قارة بكاملها يعاني ناسها ويقضون لانتفاء الرغبة او حبة الدواء . . . لماذا تكونين  
اكثر كرما من جميع اقاربه وابناء جلدته . وهل ان لك الحق ان تتصرفي باعضائك فتعرضين من يحبونك للقلق  
والشك والحيرة ؟ ! . . . اليس لعائلتك عليك حقا ؟ ! . . .

- ماذا لو قابلتها غدا او بعد غد مملوءة اسي وحزنا لتقول لي ان زوجها قضى لانه لم يجد قلبا كريما  
ففي كل مرة اكلمها احس عتبا ومرارة من الحياة وشحها وظلمها , فاحس انها تصفعي بانسانيتي فما انا الا  
واحدة من هذا الرعيل اللامبالي

بت مضكربة مشوشة التفكير . . . صرت اتحاشى لقاءها من وراء السياج . وصرت ابقى جميع

ستائري مسجلة لئلا تحين مني التفاتة شاردة صوبهما . طريقة تساعد على الهروب وتناسي المشكلة التي  
الفيت نفسي متورطة فيها اكثر مما يلزم

جاءتني بعد ايام وقرعت بابي لأول مرة مذ سكنا الجوار . قالت ودموع الفرحة هذه المرة تسبق لسانها :  
غدا تجرى لأثر عملية زرع الكلية فقد عثرنا على المتبرع . لم يبق في فضول لاسالها عن التفاصيل فاحساس  
الانفراج الذي اجتاحني كان اقوى من اي فضول . وخبريتها قد عنت لي الشيء الكثير . . . اهمه انها اقامت  
تصالحا بيني وبين نفسي فأثر لن يموت وانا لن ادان في انسانيتي

تمت العملية بنجاح . وعاد جارنا بعد عدة اسابيع من المستشفى معافى . فرحنا له جميعا .

استقبلته ابنتي الكبرى بباقة زهور كبيرة ونصب الابن الاصغر اعلاما على طول الممر المؤدي الى باب بيته  
تدعو له بالسلامة .

تشاغلنا عنهما وعدت عامدة الى عالمي قبل تعارفنا . اردت ان ابتعد عن هذه العلاقة التي جرحتنني  
على اكثر من وجه . فخف اهتمامي بهما حتى لتمر اسابيع فلا المح احدهما .  
في الايام القليلة الماضية لحظت حركة غير عادية . اناس كثيرون يروحون ويجيئون , رجال شرطة ,  
سيارات تحمل لوحات لولايات اخرى فلم اكرث فالم معانتي لم يجف بعد .  
هذا الصباح , وفيما انا في الحديقة لقضاء حاجة تلقفتني امرأة ثرثرة يبدو انها من اقارب آرثر  
- انتحر آرثر . . . وجد ميتا في المنتزه المجاور  
اتسعت حدقتا عيني واصاب لساني شلل مفاجئ فلم استطع فتح فمي لاسال عن التفاصيل , وتبرعت السيدة  
لتشرح بحسرة حاقة : انها السبب . . . لقد طلبت الطلاق

١٠ - ١٠ - ٩٦

---

ملاحظة: هذه القصص مأخوذة من:

" . . . والابناء يضرسون " , نجمة خليل حبيب, بيسان للنشر والتوزيع والاعلام, بيروت, لبنان,

ص.ب 13-5261

هاتف: 961-1-351291 فاكس: 961-1-747089

